الاتصال الحضارى بين مصر واليمن في عصري الدولة الصليحية ودولة بني رسول

أ.د. مصطفي عبد الله شيحة

جمعت وحدة الدين الإسلامي شعوب المنطقة العربية وغيرها من شعوب العالم في بوتقة واحده من الفن منذ أن بدأ الفن الإسلامي الوليد في مرحلة التكوين ثم الانتشار ، وقد دخلت مصر واليمن في هذه المرحلة الأولي من الفن - حينما أخذت الأوضاع الجديدة في الاستقرار، فقد دخل عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه- مصر بجيشه وبين طلائعه كثير من أفراد القبائل اليمنية التي صاحبت هذا الجيش لنشر الدين الإسلامي ضمن القبائل العربية الأخرى . وقد استقرت هذه القبائل في مصر وعاشت فيها ، وخلفت وراءها العديد من شواهد القبور الإسلامية التي تحمل أسماء من القبائل اليمنية التي شاركت في فتح مصر وظلت أسماء هذه القبائل تظهر علي شواهد القبور حتى القرن الخامس الهجرى /القرن الحادى عشر الميلادي.

وإذا كان الاستقرار السياسى قد ساد مصر في ظل تبعيتها للدولة الإسلامية منذ عصر الولاه، فإن اليمن لم تكن علي هذا الحال من الاستقرار في وضعها كولاية تابعة للخلافة الأموية أو الخلافة العباسية ، إذ تدهورت أحوالها واضطربت وكثرت القلائل فيها والفتن[1] وقامت فيها الدويلات المستقلة ، كدولة بني زياد (٢٠٥-٤٠٢هـ) ودولة بني نجاح(٤٠٣-٥٥٥هـ) ودولة بني حاتم(٤٩٢-٥٦٩هـ) ودولة بني مهدى(٥٥٣-٥٧٩هـ) ودولة بني أيوب(٥٦٩-٦٢٦هـ) ودولة بني رسول(٦٢٦-٨٥٨هـ) .هذا فضلاً عن قيام دولة الأئمة الزيدية التي أسسها الإمام الهادى يحيى بن الحسين اعتبارا من عام ٢٨٤هـ، ثم أخيراً الغزو العثماني لليمن ، حتى تم توحيد الشعب اليمني تحت راية ثورته عام ١٩٦٢.

ونعتقد بأن تعدد الدويلات الإسلامية في مناطق بلاد اليمن وصراعها المستمر مع بعضها وتبعيتها في بعض الأحيان للخلافة الإسلامية خارج اليمن أو لبعض الدول المعاصرة لهذه الدويلات ، وكذلك وضوح المطامع الخارجية ومحاولة السيطرة علي اليمن ... كل ذلك كان له أثر كبير في تنوع الفن الإسلامي وتأثيره من مصر وبغداد والأندلس وإيران وغير ذلك علي بلاد اليمن .

وعلي الرغم من الظروف والأحداث السياسية المتباينة التي سادت مصر واليمن خلال العصر الإسلامي ، فإن الفن الإسلامي كان يسير في اتجاهه المتطور في مجالي العمارة والفنون في كل بلاد العالم الإسلامي ، تجمعة أسس وقواعد لا تختلف إلا بالنذر اليسير من بلد لآخر ، فالمسجد وحده ثابتة من العمارة لا اختلاف في تخطيطه

[1] عصام الدين عبد الرؤوف : اليمن في ظل الإسلام منذ فجرة حتى قيام دولة بني رسول . القاهرة ١٩٨٢ ص ص ٨٥-٨٦ .

أو عناصره المعمارية إلا بقدر ضئيل حسب التطور المعمارى الذي كان يجرى في كل بلد وفق ظروفه المعمارية والبيئية ، وكذلك التطور في مجال مواد الفنون الزخرفية الذى كان يحدث في كل بلد من بلاد العلم الإسلامي بما يتمشى مع توفر المادة الخام والإبداع الشخصي لطبقة الفنانين في كل بلد قدر أسلوبهم الفني والصناعي وظروف الإنتاج المحلي والمعد للتصدير . ومن هنا فإنه يمكن القول بأن الصلات الحضارية بين كل بلاد العالم الإسلامي ـ ليس في مصر واليمن فقط ـ كانت حقيقة واقعة أملتها الصلات السياسية والدينية والاقتصادية بين البلاد الإسلامية .

والواقع أن التأثيرات الحضارية المتبادلة بين مصر واليمن ترجع إلى ما قبل عصر الدولة الصليحية والفاطمية في اليمن ومصر بحكم الاتصال الحضاري بين البلدين ولكننا نقتصر في هذا البحث علي بعض الصلات الحضارية بين الدولتين ، إذ أنه من المعروف أن الدولة الصليحية[٢] (٤٣٩-٥٣٢هـ) استولت علي مناطق عديدة من بلاد اليمن علي يد مؤسسها علي بن محمد الصليحي (٤٣٩-٤٥٨هـ) وكان من أهمها الاستيلاء علي مدينة صنعاء التي اتخذها عاصمة لدولته الجديدة ، إضافة إلى الاستيلاء علي عدن ، حتى توحدت بلاد اليمن تحت سيطرته .

كان علي بن محمد الصليحي ملكاً مستنيراً حكم اليمن بالعدل وكان متسامحاً مع مخالفيه ، ولم يفرض مذهبه علي أهل اليمن ، بل ترك الباب مفتوحاً لمن أراد التحول إلى المذهب الإسماعيلي ، وبذلك استطاع أن يحقق استقراراً في الأوضاع السياسية في بلاد اليمن ، وأن يفرض الأمن والأمان في عهده محققاً وضعاً جديداً في البلاد ترتب عليه تحسين الأوضاع الاقتصادية إلى حد كبير[٣] . وكانت دعوته هذه واستيلائه علي مقاليد الأمور في بلاد اليمن بإذن من الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٣٧-٤٨٧هـ) مما يوضح دور الاتصال السياسى بين مصر واليمن في الفترة الدقيقة لبداية الحكم الصليحي في اليمن .

لقد حكم الصليحي بلاد اليمن علي اعتبار أنه نائب عن الخليفة المستنصر بالله ، وقد بلغ من الثقة به أن عهد إليه بإقرار الأمور في مكة وبعث له برسالة في سنة ٤٥٦هـ أبدى فيها ارتياحه لما قام به من جهود وأنعم عليه بلقب عمده الخلافة .

---

[٢] قامت الدولة الصليحية علي يد علي بن محمد الصليحي ، وكان شافعي المذهب متميزا بعلمه وورعه. وقد قام بدور نشط في الترويج للدعوة للمذهب الشافعي حتى تمكن من بث هذه الدعوة واجتذاب الكثيرين إليها ، حتى تعاهدوا جميعا علي نشر المذهب الإسماعيلي والدعوة للإمام المستنصر بالله الخليفة الفاطمي ، حيث أعلن علي الصايحي بدء ثورتة في عام ٤٣٩هـ بعد استئذان الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، "حتى جاءت سنة ٤٥٥هـ ولم يبق في بلاد اليمن سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر إلا فتحة" بحيث أصبح الصليحي أكبر قوة في بلاد اليمن ، وقد أعقب علي بن محمد الصليحي عدد من أمراء هذه الدولة : المكرم بن علي بن محمد (٤٥٨-٤٨٤هـ)سباً بن أحمد بن المظفر (٤٨٤-٤٩٢هـ) وأروى بنت أحمد الصليحي (٤٩٢-٥٣٢هـ).
انظر: نجم الدين عمارة، تاريخ اليمن-تحقيق محمد زينهم عزب- بيروت ، العرشى: بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولي ملك اليمن من ملك وإمام، مصر ١٩٣٩، ص ص ٢٤-٢٥،عبد الله الجرافي : المقتطف في تاريخ اليمن- بيروت ١٩٨٤ ، ص ص ٧٦-٨١.

[٣] عصام الدين عبد الرؤوف: اليمن في ظل الإسلام ، ص ١٥٥.

وتوضح نقود الدولة الصليحية التي ضربت في عهد الأمير علي الصليحي مدي الارتباط السياسي والحضاري بين الدولتين في مصر واليمن ، ويبدو هذا الارتباط وثيقاً فيما أصدره هذا الأمير من دنانير تشير إلى تبعيته للخليفة المستنصر بالله بالقاهرة، فعلي ظهر دينار ضرب مدينة زبيد (٤٤٢هـ) يقرأ :أمر به الأمير " سيف المعد علي بن محمد " حيث تشير كلمتي "سيف المعد" الذى يبدو أن الأمير على بن الصليحى قد تلقب به من قبل الخليفة المستنصر بالله فى بداية حكمه تشجيعا على ما حققه هذا الأمير من نصر في اليمن لصالح دعوة الدولة الفاطمية في مصر[٤] .

وعلي دينار آخر ضرب مدينة زبيد أيضاً مؤرخ بسنة (٤٥٥هـ) يقرأ علي مركزي وجه وظهر الدينار "الإمام معد أبو تميم " وهو الخليفة المستنصر بالله ، وهو أمر يعكس العلاقة السياسية التي ربطت بين الخلافة الفاطمية في مصر والدولة الصليحية في اليمن وهي علاقة التبعية ،فبعد إعلان الأمير علي بن محمد قيام الدولة الصليحية أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله علي منابر اليمن ، ثم ذكر اسمه صراحة بعد ذلك وزالت الدعوة العباسية من هذه البلاد . وكان من الطبيعى بعد أن أقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي أن يسجل اسمه علي الدنانير الصليحية بوصفه الحاكم والإمام الذى تخضع له الدولة الصليحية من الناحيتين المذهبية والسياسية .

ويظل اسم الخليفة المستنصر بالله ظاهراً علي نقود الدولة الصليحية ، سواء كانت هذه النقود من ضرب زبيد أو عدن لتؤكد بدورها ذلك الاتصال السياسى والحضارى بين الدولة الفاطمية في مصر والدولة الصليحية في اليمن [٥]

ولي حكم الدولة الصلحية في اليمن المكرم أحمد بن علي (٤٥٩-٤٧٧هـ) بعد وفاه أخيه الأكبر محمد الأعز [٦] وقد ورث هذا الملك الصليحى تركة مثقلة من المهام السياسية والعسكرية فى البلاد. وقد بعث له الخليفة الفاطمى المستنصر بالله فى سنة ٤٦٠هـ برسالة عبر فيها عن أسفه لوفاة والده وقلده فيها شؤون الدعوة خلفاً لأبيه ووجه إليه النصح والإرشاد [٧] وقد نعمت الدولة الصليحية فى عهده بالهدوء والاستقرار[٨].

وعلى الرغم من قوة مكانة هذا الملك الصليحى وسيطرته على بلاد اليمن، فقد ظل على علاقة طيبة مع الخلافة الفاطمية فى مصر، يشهد بذلك استمرار بقاء اسم الخليفة المستنصر بالله على النقود المضروبة فى عهد هذا الملك. فعلى دينار مؤرخ بعام (٤٧٣هـ) يظهر اسمه على هامش ظهر الدينار فى سطرين "الإمام معد أبو تميم

[٤] لمزيد من التفاصيل عن هذا اللقب الفريد انظر : صالح العبودي : دنانير صليحية من مجموعة مكتبة الملك فهد الوطنية ، رسالة ماجستير ، قسم الآثار والمتاحف ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود- الرياض- ١٩٩٨، ص ١٣ ،ص ص ٢٠-٢١ .

[٥] صالح العبودي : دنانير صليحية : ص٣٣،٤٢،٤٣،٤٥،٤٧،٤٩.

[٦] عبد الله محمد الحبشي: تاريخ اليمن الإسلامى من سنة ٢٠٤هـ إلى سنة ١٠٠٦هـ، بيروت ١٩٨٦ ص ص ٢٤٢-٢٤٥

[٧] عصام الدين عبد الرؤوف : اليمن ، ص ١٥٦.

[٨] عمارة: تاريخ اليمن ، ص ٤٢ .

المستنصر بالله أمير المؤمنين"[٩] . هذا إضافة إلى ما أنعم به الخليفة المستنصر بالله من ألقاب على هذا الملك والتى وردت فى السجلات المستنصرية على النحو التالى : " الأمير الأجل، المكرم، شرف الأمراء، عز الملك، ذو السيفين أبو الحسن أحمد بن الأجل الأوحد، أمير الأمراء، عمدة الخلافة، شرف المعالى، تاج الدولة، سيف الإمام، المظفر فى الدين، نظام المؤمنين، نصره الله، و أظفره وأحسن توفيقه وأيده" [١٠] .

ويتوالى ظهور اسم الخليفة المستنصر بالله على عدد من الدنانير الصليحية فى عهد المكرم أحمد فى سنوات (٤٧٥هـ) ، (٤٧٦هـ) ، (٤٧٧هـ) من ضرب مدينة عدن [١١] مما يعكس بدوره الاتصال السياسى والحضارى بين الدولتين فى مصر واليمن.

والواقع أن الاتصال السياسى والحضارى بين الدولتين يأخذ دورا جديدا بقدوم السيدة أروى بنت أحمد الصليحى نتيجة أحداث سياسية فرضت نفسها على دفة الأمور السياسية فى اليمن، فقد توفى الملك المكرم أحمد بعد مرض شديد، وكان قد فوض أمور الدولة ومقاليدها إلى زوجته الملكة أروى [١٢] التى كتمت نبأ وفاة زوجها وولت ابنها عليا وأرسلت تطلب من الخليفة المستنصر تقليداً لابنها بحكم مملكة أبيه، فوافق المستنصر وأصدر مرسوماً بتقليد على ابن المكرم ملكا على اليمن ولقب بعبد المستنصر، على أن عبد المستنصر لم يلبث أن توفى فتزوج أبو حمير سبأ الملكة أروى وكان المكرم أحمد قبل وفاته قد عهد إليه بأمر الدولة والدعوة للإسماعيلية فى اليمن كلها، وكان هذا الزواج بأمر من الخليفة المستنصر بالله [١٣] .

وقد استمرت السيدة أروى الصليحية (٤٩٢-٥٣٢هـ) فى ضرب الدنانير التى تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين فى مصر دون أن تذكر اسمها صراحة على هذه الدنانير[١٤] وتحتفظ المتاحف والمجموعات الخاصة بالعديد من هذه الدنانير التى تتابع فى تواريخ إصداراتها فى خلافة المستنصر بالله حيث يظهر اسمه ولقبه بدءا من سنة ٤٨١ هـ ثم اسم الخليفة الآمر بأحكام الله بدءا من سنة ٥١١هـ وهو ما يدل على تبعية

---

[٩] صالح العبودى: دنانير صليحية ، ص ٥٧

[١٠] عبد المنعم ماجد: السجلات المستنصرية ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ص ٩٦-٩٨، رقم ٢٩

[١١] صالح العبودى : دنانير صليحية ، ص ٦٨،٧٢،٧٧

[١٢] هى السيدة أروى بنت أحمد بم محمد بن القاسم الصليحى، عاشت بعد وفاة والدها فى بيت الأمير على، وقامت على تربيتها وتهذيبها السيدة الحرة أسماء بنت شهاب زوجة الأمير على، فنشأت نشأة طيبة وكان كثيرا ما يقول لزوجته أسماء "أكرميها فهى والله كافة ذرارينا، وحافظة هذا الأمر على مابقى منا" ، وقد ظهرت السيدة أروى على مسرح الأحداث السياسية فى عهد زوجها المكرم أحمد وبعد وفاة المكرم فوض إليها المستنصر بالله أمور الدولة والدعوة فى بلاد اليمن والهند وعمان .
لمزيد من المعلومات انظر: حسين الهمذانى وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ، القاهرة ١٩٥٥.

[١٣] عمارة : تاريخ اليمن ، ص١٥٣.

[١٤] يرى كثير من الباحثين فى مجال النقود الإسلامية حول الأسباب التى دعت السيدة أروى إلى عدم تسجيل اسمها على دنانيرها واستمرارها فى نقش اسم زوجها عليها، على الرغم من اعتياد اليمنيين على حكمها للبلاد أنه من الصعب صدور عملة إسلامية منقوش عليها اسم امرأة، وهو أمر لم يعتاده أهل اليمن أو غيرهم، فلم يكن ليقبل تداول دنانير تحمل اسم امرأة. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: صالح صليحية: ص ص ٨٩-٩١.

الدولة الصليحية فى اليمن للدولة الفاطمية فى مصر حتى عام ٥٣٢هـ، حينما نقش لقب الإمام فقط على دينار نتيجة الأحداث السياسية التى حدثت فى أعقاب اغتيال الخليفة الآمر بالله وإقصاء ابنه الطيب عن الإمامة والخلافة، وقد ظلت السيدة أروى تقيم الدعوة على منابرها. وكان هذا الأمر فى الوقت نفسه دلالة مؤكدة على استقلال الدولة الصليحية عن الخلافة الفاطمية لأول مرة مع عدم الاعتراف بالخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى [١٥] .

وإذا كانت النقود الإسلامية تعكس مظهراً رسمياً مهماً لذلك الاتصال السياسى والحضارى بين مصر واليمن فى عهد الدولتين الفاطمية والصليحية فان هناك مظاهر أخرى تعكس هذا الأمر نفسه، فمن الواضح منذ بداية الدولة الصليحية أن مؤسسها على بن محمد الصليحى كان يحكم بلاد اليمن باسم الخليفة الفاطمى فى القاهرة على اعتبار انه الإمام الإسماعيلى. ويذكر المؤرخ يحيى بن الحسينى أن على الصليحى بمجرد أن دانت له بلاد اليمن بالطاعة والولاء أرسل إلى الخليفة المستنصر بالله هدية كبيرة تتكون من " سبعين سيفا مقابضها من عقيق وخمسة أثواب وشى وفصوص عقيق ومسك وعنبر ، ورسالة يطلب فيها أن يقلده حكم اليمن، فأرسل إليه المستنصر رايات كتب عليها الألقاب وعهد إليه بالولاية"[١٦] .

وكان الخليفة الفاطمى على صلة ودية طيبة مستمرة مع ملوك الدولة الصليحية وهو الأمر الذى يتضح من خلال المراسلات التى سجلتها السجلات المستنصرية والتى أفاضت في هذا الجانب الودى فى كل مناسبة يتم فيها تبادل الرسائل، إلى أن تبدلت الأمور وساءت بعد وفاة الخليفة المستعلى بالله.

ومن هذه المظاهر التى تعكس تأثير العمارة الفاطمية فى مصر على عمارة الدولة الصليحية فى اليمن وخاصة فيما تبقى من آثار معمارية بمدينة ذى جبلة[١٧] التى تمتاز بطابع عمارتها الإسلامية، حيث لا زالت هذه المدينة تحتفظ بعمائر إسلامية مهمة كمسجد جبلة وقبة الزوم ودار العز التى أنشأتها السيد أروى الصليحية.

ويعد مسجد جبلة من أهم الآثار الإسلامية في المدينة حيث تنسب عمارته إلى السيدة أروى ، حيث أمرت في عام ٤٨٠ هـ بتحويل دار العز الأولي وهي قصر كبير إلى هذا المسجد الذى ما زال قائماً على مرتفع بوسط المدينة ، وذلك عند انتقالها إلي مدينة جبلة ورغم ما توالي علي عمارة وزخرفة هذا المسجد من تغيرات ، إلا أنه لا يزال محتفظاً بكثير من عناصره الأولى التي توضح التأثيرات المعمارية والزخرفية

[١٥] لمزيد من المعلومات انظر : صالح العبودى دنانير صليحية: ص ص ٩٣-١٠٠

[١٦] يحيى بن الحسين: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٦٥ ص ٢١٤.

[١٧] ذى جبلة مدينة متدرجة الارتفاع(٦٧٤٥ قدم فوق مستوى البحر) تبعد عن مدينة آب بمسافة ٧كم وكانت تسمى قديماً بمدينة النهرين. شيدها عبد الله بن على الصليحى سنة ٤٥٨هـ وسماها على اسم تاجر يهودى كان يبيع الفخار فيها قبل عمارتها، ثم انتقل إليها المكرم بن على الصليحى وزوجته السيدة أروى بنت احمد ثم صارت جبلة عاصمة الدولة الصليحية.
انظر محمد الحجرى : مجموع بلدان اليمن وقبائلها- تحقيق اسماعيل الأكوع -المجلد الأول – ط ١٩٨٤م ص ٣٤-٣٥ ،المقحفى -معجم البلدان والقبائل اليمنية -صنعاء -١٩٨٥م – ص١٢٢ .

بين عمائر الدولة الصليحية في اليمن والدولة الفاطمية في مصر تمشياً مع العلاقات الودية التى سادت بين الدولتين[١٨].

ويتكون تخطيط المسجد من صحن مكشوف (٢٠م × ١٧,٨٥سم) تحيط به الأروقة من الجهات الأربع ، أعمقها رواق القبلة في الناحية الشمالية ويدخل إلى رواق القبلة من خلال خمسة مداخل في الضلع الجنوبي للرواق والأوسط منها علي محور محراب المسجد . ويضم هذا الرواق أربع بلاطات ، ويتعامد علي محراب القبلة مجاز، ويتميز سقف الرواق بوجود المصندقات الخشبية ذات العناصر النباتية والهندسية والتي تميزت بتلوينها بألوان مختلفة ، ويعود تاريخ زخرفة هذه المصندقات الخشبية إلى القرن الخامس الهجرى /١١م هذا فضلاً عن سقوف مسطحة أخرى بالرواق أنجزت في فترة لاحقة .أما أروقة المسجد الأخرى فيلاحظ أن الرواق الجنوبي يتكون من بلاطة واحدة والشرقي والغربي من بلاطتين مع وجود ردهة محجوبة جهة الناحية الجنوبية من الجدار الغربي .

ويتفق هذا المسجد في تخطيطه مع المساجد الفاطمية في مصر من نوع الصحن المكشوف المحاط بأروقة جانبية ووجود المجاز كما في الجامع الأزهر وجامع الحاكم بأمر الله ، فضلاً عن عناصر معمارية أخرى[١٩]

ويعد محراب هذا الجامع متأثراً إلى حد كبير بالمحاريب الفاطمية ذات الزخارف النباتية والهندسية ، فهو عبارة عن كتلة مصنوعة من الجص يشغل أوسطها تجويف المحراب ، ويعلوه عقد مدبب ذو إطار عريض محمول علي عمودين ويزخرف طاقيته شكل هندسى أشبه بالصدفة أو المحارة ، ويملأ تجويفه وحدة زخرفية مكررة من ورقة العنب الخماسية مثقوب فصها الأوسط وتشبه الزخرفة إلى حد كبير العناصر النباتية علي محراب الجامع الأزهر . هذا بالإضافة إلى تلك الزخارف والكتابات الأخرى التي تزين ضريح السيدة أروي في البناء المربع الشكل (٣,٦٠م) الملحق في الزاوية الشمالية الشرقية ، حيث تشير الكتابات علي هذا الضريح إلى مثيلاتها من الكتابات الكوفية علي العمائر الفاطمية [٢٠] .

أما فيما يتعلق بمواد الفنون الزخرفية ومدي تأثرها بالتأثيرات الفنية الفاطمية فإننا لا نستطيع الجزم بمثل هذه التأثيرات حالياً لأن المعروف من التحف الفنية التي ترجع إلى عصر الدولة الصليحية نادر للغاية . ذلك فان المصادر التاريخية ذكرت كثير من الهدايا المتنوعة التي كان يبعث بها حكام الدولة الصليحية إلى خلفاء الدولة الفاطمية ، الذين كانوا يردون بهدايا أخرى إليهم ، وكانت مثل هذه الهدايا تشمل مواد ثمينة بطبيعة الحال من مواد المعادن والمنسوجات وغيرها بحكم العلاقات الودية بين الدولتين [٢١] ،ومما يقطع بوجود تأثيرات فنية متبادلة هو العثور علي تحف أثرية في

[١٨] مصطفي عبد الله شبحة : مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية ، القاهرة ١٩٨٧،ص٦١ .

[١٩] انظر: عبد الله كامل :دراسة معمارية مقارنة للعمائر الدينية في عصر الدولة الصليحية في اليمن والفاطمية في مصر . رسالة ماجستير غير منشورة .كلية الآثار – جامعة القاهرة – ١٩٩٠ .

[٢٠] لمزيد من التفاصيل انظر: مصطفي عبد الله شيحة : مدخل،ص ص ٦٠-٦٤ ، ولوحة ٢٨-٣١ شكل ٧

[٢١] لمزيد من التفاصيل انظر : مصطفي عبد الله شيحة : مدخل ، ص ص ٦٠-٦٤ ، ولوحة ٢٨-٣١ شكل ٧

حفائر المناطق الأثرية في بلاد اليمن وخاصة في أنقاض المدن الإسلامية التي لم يتم الكشف عنها حتى الآن.

وإذا كانت التأثيرات الفنية المتبادلة فى مجال العمارة و الفنون فى فترة حكم الدولة الصليحيه فى اليمن والفاطمية فى مصر تعد قليلة بحكم ندرة التحف الصليحية وكذلك الأثار المعمارية ، فإن الأمر يختلف كثيراً فى فترة عصر الدولة بنى رسول فى اليمن ودولة المماليك فى مصر.

ومن المعروف أن عصر دولة بني رسول في اليمن (٦٢٦-٨٥٨هـ) يعد من أزهي فترات الازدهار المعمارى وكذلك علي مواد الفنون الزخرفية في اليمن ، لما ساد عصر هذه الدولة من استقرار سياسى ورخاء اقتصادى انعكست آثاره على جنوب اليمن خاصة. ولعل من أهم العوامل التى ساعدت على هذا الازدهار ما كان عليه سلاطين وملوك هذه الدولة من فكر وثقافة ودراية كبيرة بمصنفات العلوم المختلفة، إضافة إلى العلاقات الودية التى سادت بين سلاطين دولة بنى رسول ومعظم سلاطين دولة المماليك فى مصر مما كان له أثر كبير فى وجود صلات فنية متبادلة، كما كان أيضا لكثرة التحف المهداة والمتبادلة بين سلاطين وملوك الدولتين أثرها الملحوظ على المنتجات الفنية خاصة فى اليمن[٢٢]

ويأتى فى مقدمة تلك التأثيرات المعمارية خاصة انتشار نظام المدرسة بمفهومها المعمارى والدينى وان كانت منشأة المدرسة قد دخلت بلاد اليمن، خلال حكم الأيوبيين إذ انه من المعروف أن بلاد اليمن خضعت فترة من الزمن لحكم الأيوبيين فى مصر منذ أن بعث صلاح الدين الأيوبى بحملة قادها أخيه توران شاه تمكنت من دخول مدينة زبيد[٢٣]، وفى أواخر فترة حكمهم شرع الملك المعز إسماعيل بن طغتكين ببناء أول مدرسة يمنية فى مدينة زبيد سنة ٥٩٤هـ، وهى المدرسة التى عرفت باسم المدرسة المعزية، ومنذ ذلك التاريخ تتابع انتشار المدارس فى جنوب بلاد اليمن[٢٤]، وأوقف على بناءها أوقافا كثيرة من قبل الملوك والسلاطين والأثرياء، وإن كان لم يبق من آثار بناء المدارس فى العصر الأيوبى اثر يمكن الاعتماد عليه. ويستفاد من النصوص التاريخية التى أوردت بعض التراجم لشيوخها أن معظمها كان مخصصا لدراسة المذهب الشافعى وعلم القراءات.

وهذا وقد زاد بناء المدارس خلال عصر دولة بنى رسول وخاصة فى جنوب اليمن ـ كما تقدم ـ لمواجهة قوة وتأثير المذهب الزيدى فى شمال اليمن وخطورته على دولة بنى رسول فى الجنوب، إذ أن الصراع بين دولة بنى رسول ودولة الأئمة

---

[٢٢] مصطفى عبد الله شيحه : أضواء على تاريخ العمارة الدينية فى عصر بنى رسول فى اليمن. مجلة المؤرخ المصرى – العدد الثانى، يوليو ١٩٨٨ (قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة القاهرة) ص ٢٧.

[٢٣] زبيد مدينة كبيرة على اسم واد مشهور يصب فى تهامة ثم البحر الأحمر، وكانت تسمى هذه المدينة بالحصيب، أسسها محمد بن زياد فى عام ٢٠٤هـ بأمر الخليفة المأمون العباسى واتخذها عاصمى للدولة الزيادية، وكانت زبيد أيضا عاصمة فى عهد أوائل حكم بنى أيوب فى اليمن، وينسب إلى هذه المدينة جمع كبير من العلماء والفقهاء ومازالت تحتفظ بكثير من الآثار الإسلامية المتنوعة من أهمها الجامع الكبير ومجموعة أخرى من المدارس الإسلامية. انظر: المقحفى، المعجم ص ص ٢٩٦-٢٨٩.

[٢٤] إسماعيل الاكوع: المدارس الإسلامية فى اليمن، الطبعة الاولى١٩٨٠ ص ٧

الزيدية كان قويا، وهو الأمر الذى تطلب نشر مثل هذه المدارس فى مدن وقرى اليمن[٢٥].

ولما كان لآل على بن رسول رياسة فى أيام حكم بنى أيوب باليمن فقد وفدوا عليها من مصر مع بنى أيوب، وتمكن أحدهم وهو نور الدين عمر بن على بن رسول من أن يستقل بالحكم عن الأيوبيين وأن يعلن استقلال بلاده ليؤسس بذلك الدولة الرسولية الجديدة التى اتخذ لها مدينة تعز عاصمة لملكه وتلقب بالملك المنصور[٢٦]. ومنذ عصر هذا الملك الرسولى (٦٢٦ ـ ٦٤٧ هـ) توالى إنشاء المدارس بكثرة، إذ انه ما من ملك من ملوك هذه الدولة إلا وبنى له مدرسة أو أكثر هذا بالإضافة إلى المدارس الكثيرة التى أنشأها كبار رجال الحكم والأثرياء، بل وبعض السيدات من أفراد المجتمع الرسولى، وقد بدأ الملك عمر بن رسول فى إنشاء المدارس فبنى فى مدينة زبيد مدرستان، المدرسة المنصورية العليا لأصحاب المذهب الشافعى ، والمنصورية السفلى التى جعلها على قسمين أحدهما لأصحاب المذهب الحنفى والقسم الآخر لأصحاب الحديث، إضافة إلى عدة مدارس أخرى فى بعض المدن والقرى اليمنية[٢٧] وقد كان لتأثير نظام المدرسة الأيوبية وضوحاً بطبيعة الحال فى تخطيط هذه المدارس، إذ يلاحظ إن هذه المدارس كانت مخصصة لتدريس مذهب دينى واحد أو اثنين على الأكثر، مما يقطع بتخطيطها المعمارى المكون من صحن وإيوانين كما كان فى المدرسة الكاملية فى مصر. ولا غرابة فى ذلك فقد كان الرسولين هم ورثة بنى أيوب فى حكم اليمن فساروا على نفس النظام المعمارى فضلا عن اعتناقهم للمذهب السنى الشافعى مذهب الأيوبيين فى مصر.

ونعتقد بأن ما اتبعه أول سلاطين هذه الدولة فى هذا التخطيط المعمارى كان هو الأساس الذى سار عليه كل ملوك الدولة الرسولية فى نظام المدرسة فى اليمن، وعلى ذلك فان تخطيط المسجد على نمط الصحن المكشوف المحاط بالأروقة ظل موجودا وقائما لفترة طويلة من الزمن[٢٨]، وقد تبع الملك عمر بن رسول عدد كبير من أهل بيته ووزرائه وحاشيته فى بناء المدارس على نفس التخطيط.

وإذا كان تخطيط نظام المدرسة يتكون عادة من الصحن والأيونات فإننا نلاحظ فى جنوب اليمن أن المدرسة تأخذ شكلا معماريا جديدا تمثل فى النظام المتبع فى عمارة المسجد حيث الصحن والأروقة. ففى عصر الملك المظفر يوسف بن عمر (٦٤٧ ـ ٦٩٤ هـ) الذى بنى جوامع ومدارس عديدة يطلق لفظ الجامع على المدرسة حتى يقال

---

[٢٥] لمزيد من المعلومات انظر: مصطفى عبد الله شيحه: دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية، مقال فى ندوة المدارس فى مصر الإسلامية: سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢ ص ص٤٠٧-٤٨٧.

[٢٦] الجرافى : المقتطف ص ٨٨-٩٨.

[٢٧] انظر عبد الرحمن بن الايبغ: الفصل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلحد ـ بيروت ١٩٨٣ ص٩٠.

[٢٨] أنشأ الملك عمر بن رسول المسجد النورى نسبة إليه وكان يقع بين مدينتى زبيد وحيس انظر ابن الدبيغ الفضل المزيد ص ٩٠

"جامع المدرسة" وهو الأمر الذى يتضح فى بناء المدرسة المظفرية المنسوبة إليه[٢٩] وذلك متعارف عليه، فكثيراً ما تذكر المصادر التاريخية مدرسة السلطان حسن بالقاهرة بجامع السلطان حسن، رغم وضوح الغرض التعليمى فى أيونات المدرسة.

تتابع بناء المدارس والمساجد فى جنوب اليمن خلال فترة حكم الأشرف عمر بن يوسف (٦٩٤-٦٩٦هـ) الذى بنى مدرسة له بمدينة تعز عرفت بالمدرسة الأشرفية ورتب فيها أساتذة ودارسين يتعلمون ثم تابعه فى إنشاء المدارس الملك المؤيد داود بن يوسف (٦٩٦-٧٢١هـ)، كما أنشأ الملك المجاهد على بن المؤيد(٧٢١-٧٦٤هـ) المدرسة المجاهدية بشرق مدينة تعز وجعلها جامعا ومدرسة وخانقاة، وبنى فى مكة مدرسة عرفت أيضا بالمدرسة المجاهدية نسبة إليه، وقام بإنشاء مدارس أخرى أيضا[٣٠].

ولم يتوقف بناء المدارس فى عصر هذه الدولة فى كل أنحاء جنوب اليمن، إذ شهد جنوب اليمن اتصالاً حضارياً مع مصر لم يتوقف منذ قبل عصر هذه الدولة، حيث كان للعلماء والفقهاء صلة مستمرة بعلماء وفقهاء مصر، فضلا عن الاتصال التجارى بين الدولتين .

والواقع أن المدرسة اليمنية تميزت بغلبة تدريس المذهب الشافعى إلى حد كبير عن غيره من المذاهب رغم تدريس بعض المذاهب الدينية الأخرى كمذهب أبى حنيفة ومذهب الإمام أحمد بن حنبل، وهو الأمر الذى فرض تأثيره على تخطيط المدرسة، وخاصة فى احتوائها على إيوان رئيسى (بيت صلاة) وإيوان واحد مقابل له يفصل بينهما فناء صغير مكشوف، وقد استخدمت القباب فى معظم الأحيان فى تغطية بيت الصلاة سواء كانت هذه التغطية من قبة واحدة رئيسة أو قباب متجاورة، وهو أمر يختلف عن تغطية مساحات الإيوانات فى المدارس المصرية التى غلب على تغطيتها السقوف المسطحة والأقبية.

وقد تميزت بيوت الصلاة فى المدارس اليمنية بجمال زخارف بواطن القباب بأسلوب الألوان المائية بعناصر الزخارف النباتية والهندسية فى قالب جمالى بديع، كان من أبرز مميزات الزخارف الجصية على العمائر الدينية اليمنية.

على أى حال، فإن الاتصال الحضارى بين مصر واليمن انعكس فى مجال العمارة الدينية سواء فى التخطيط أو الزخرفة بجانب الاتصال الفكرى بين علماء وفقهاء مصر واليمن وكذلك فى نظام الوقف والصرف على هذه المدارس وفى هيئات التدريس والطلبة[٣١] وتتضح التأثيرات الفنية المتبادلة بين مصر واليمن فى هذه الفترة إلى حد كبير فى مجال مواد الفنون الزخرفية، فقد كان ملوك الدولة الرسولية على

[٢٩] يعد جامع المدرسة بمدينة تعز من أهم واجمل آثار هذه المدينة وتتكون المدرسة من صحن كبير محاط بأروقة أعمقها رواق القبلة. لمزيد من التفاصيل انظر: مصطفى شيحه: مدخل ص ص ٩٢-٩٤.

[٣٠] الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد الاكوع، الطبعة الثانية ١٩٨٣ ص ٣٧٥.

[٣١] لمزيد من المعلومات انظر مصطفى شيحه : دراسة مقارنة ص ص ٤٥٠-٤٦٣.

علاقات طيبة بسلاطين المماليك فى مصر، حيث كان هناك كثير من السفارات والهدايا المتبادلة بينهم، وقد شملت الهدايا تحفا من مواد متنوعة وقيمة، فضلا عن استعانة سلاطين دولة بنى رسول بكثير من صناع مصر الذين ذاع صيتهم فيما ينتجونه من تحف بديعة.

ومن المعروف إن مادة المعادن حظيت فى عصر الدولة الرسولية باهتمام كبير، ولعل ذلك بسبب استخراج المعدن من ذهب وفضة وحديد ورصاص وغيره من مناطق عديدة فى جبال اليمن، وقد أفاضت المصادر التاريخية فى ذكر المناجم فى جبال اليمن ولاسيما المناجم الخاصة التى يستخلص منها جوهر الزمرد والياقوت[٣٢]، حتى إن هناك كثير من المصطلحات والأسماء كانت تطلق على المعدن الواحد لتميز درجة جودته[٣٣] ولذلك كان إنتاج التحف المعدنية فى عصر دولة بنى رسول كثيرا ومتميزا وخاصة فى صناعة السيوف التى ذاعت شهرتها منذ القدم فى بلاد اليمن أسلوبا وزخرفة. وكانت السيوف من أهم الهدايا التى يبعث بها ملوك هذه الدولة إلى سلاطين المماليك فى مصر ضمن السفارات التى حملت معها هدايا قيمة وثمينة.

ويحتفظ المتحف الوطنى بصنعاء بتحف معدنية قيمة من عصر هذه الدولة منها مجموعة من السيوف تتميز قوائمها ونصالها بزخارف نباتية من أشكال الورود والأوراق الرمحية والنصلية والزخارف الهندسية المحفورة حفرا بارزا وغائرا. ومن بين مجموعة المتحف الحربية بعض الدروع المصنوعة من الحديد وشمعدان من النحاس المكفت بالفضة على رقبته وبدنه كتابات نسخية لبعض الألقاب التى جرى انتشارها فى عصر الدولتين مثل [المقر العالى المالكى العالمى العاملى الغازى الملكى] ونعتقد بأن هذا الشمعدان يمكن اعتباره تقليدا لنماذج الشماعد المملوكية التى جرى تقليدها فى اليمن خلال عصر دولة بنى رسول[٣٤] .

إلى عصر دولة بنى رسول يمكن إرجاع بعض الدسوت المصنوعة من النحاس الأصفر والتى تتميز بوجود أشرطة من الكتابات النسخية عليها تحمل بعض الألقاب والأسماء، وكذلك يحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة بنماذج من التحف المعدنية الرسولية مثل الكاسات والصدريات والطشوت والصوانى والأباريق والعلب والأوانى التى تشهد بتواصل التأثيرات الفنية المتبادلة بين مصر واليمن فى هذه الفترة، وعلى بعض هذه التحف أسماء وألقاب ملوك بنى رسول باليمن، وقد زينت هذه التحف المعدنية بزخارف متنوعة نباتية وهندسية وآدمية وحيوانية فضلا عن أشرطة الكتابات بخط الثلث المملوكى[٣٥].

[٣٢] انظر : الهمدانى : صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد الاكوع - بغداد ١٩٣١ ص ص ٣٢١-٣٢٣.

[٣٣] من ذلك كان يطلق على الفضة من مسميات مختلفة مثل : (اللجين، الصريف، الرضراض، الوذيلة)

[٣٤] مصطفى شيحه : مدخل ص ص ١٣٢-١٣٤.

[٣٥] ربيع خليفة : الفنون الزخرفية ، ص ص٣٠-٤١.

وتوضح زخارف التحف المعدنية وأساليب صناعتها مدى تأثرها بمثيلاتها من التحف المعدنية المملوكية التى كانت تلقى رواجا كبيرا فى الأسواق اليمنية وبالتالى كان يجرى تقليدها[٣٦].

وازدهرت كذلك صناعة الأخشاب وزخرفتها فى بلاد اليمن، إذ عرف منذ القرن الثالث الهجرى/٩م على الأقل أساليب صناعية وزخرفية متقدمة من خلال الحشوات المحفورة حفرا بارزا وغائرا بجانب أسلوب المصندقات الخشبية وظهور التراكيب الخشبية[٣٧] التى شهدت انتشارا كبيرا خاصة بعد فترة حكم الدولة الرسولية فى اليمن، وقد لقيت صناعة النسيج اهتماما كبيرا فى عصر الدولة الرسولية يشهد بذلك كثير من الإشارات التى وردت فى المصادر التاريخية فى هذا الصدد فضلا عن الهدايا التى كان يرسلها ملوك الدولة الرسولية إلى سلاطين دولة المماليك فى مصر، وكذلك تصدير واستيراد المنسوجات من البلدين فكان نسيج البقلمون يصدر من مصر إلى اليمن على سبيل المثال[٣٨].

وبإيجاز فقد ازدهرت مواد الفنون الزخرفية فى عصر دولة بنى رسول ازدهارا كبيرا وتأثرت هذه المواد فى طرق صناعتها وزخرفتها بمثيلاتها من مواد الفنون الزخرفية فى مصر فى العصر المملوكى بفضل العلاقات الودية التى سادت بين البلدين فى معظم الأحيان.ولكننا نرى أثراً كبيراً لتأثير نقود العصر المملوكى على نقود الرسولين عكس ما كان عليه الأمر فى عصر الدولة الصليحية التى دانت بالتبعية للدولة الفاطمية فى مصر، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى قوة دولة الرسولين فى جنوب اليمن مما هيأ لها استقلالا واضحا عن مصر أو بغداد التى وقعت فى قبضة المغول فى عام ٦٥٦هـ وتغير وجه الخلافة الإسلامية لتنطلق من مصر بعد ذلك، رغم أن سلاطين المماليك فى مصر اعتبروا بلاد اليمن تدين بالتبعية للخلافة الإسلامية التى انطلقت من مصر.

ويلاحظ على النقود الرسولية بصفة عامة ظهور زخارف متنوعة نباتية كشكل الوريدة المتعددة الفصوص والمعروفة بزهرة اللؤلؤ (زهرة المرجريت) ذات الخمس بتلات والتى كانت رنكا أو شعارا للدولة الرسولية على الأرجح أو استخدام تفريعات وأوراق نباتية بشكل بسيط.

وقد ظهرت هذه الوريدة على كثير من التحف المعدنية الرسولية منذ عصر الملك المظفر، هذا بجانب النقوش التصويرية التى ظهرت على عملة بنى رسول كمناظر صيد وسباع وأسماك وطيور وأشخاص، والتى كانت فى حقيقة الأمر مجرد زخارف وليست بمثابة رنوك بجانب الزخارف الهندسية التى تشكل طراز النقود الرسولية.

---

[٣٦] لمزيد من المعلومات انظر: ربيع خليفة : الفنون الزخرفية ص ٤٣-٤٤

[٣٧] ربيع خليفة، الفنون الزخرفية، ص ص٩٨-١٤٥ مصطفى شيحه: مدخل ص ص١٤٦-١٥٦

[٣٨] راجع: ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق ايمن فؤاد سيد: ص ٥٢ وأيضا ربيع خليفة : الفنون الزخرفية ص ص ١٦٦-١٧٣.

والواقع أن مثل هذه الرسوم أو النقوش لم تكن معروفة من قبل على نقود بنى رسول حتى عهد السلطان الملك المجاهد على، وتحديدا مع ظهور الدرهم الرسولى الجديد عام ٧٣٦هـ، ولا تكاد تخلو سنة بعد تلك السنة طيلة فترة الملك المجاهد إلا وتحمل النقود المضروبة رسوما وتصاويرا مختلفة وذلك أمر لعله نتج من استعانة الدولة الرسولية بكثير من صناع السكة فى المشرق الإسلامى، وقد حملت بعض هذه الرسوم على السكة الرسولية تأثيرات واضحة من رسوم الرنوك لسلاطين العصر المملوكى فى مصر والشام وان استخدمت كعناصر زخرفية بحتة[٣٩] .

وثمة مظهر حضارى آخر يظهر على التحف الرسولية والنقود بل وعلى العمائر فى عهد هذه الدولة وهو وضوح كثير من الألقاب التى اتخذها ملوك بنى رسول والتى تذكر ببعض الألقاب لسلاطين المماليك فى مصر، فقد ظهر ملوك هذه الدولة بما كان عليه ملوك الدولة الأيوبية ومن بعدها دولة المماليك إلى حد كبير.

هذا ومن المعروف إن العلاقات الودية بين الدولتين توطدت حينما تولى السلطان الظاهر بيبرس عرش السلطنة المملوكية سنة ٦٥٨هـ مع الملك الرسولى المظفر يوسف بعد دوره البطولى وقطز فى معركة عين جالوت، حيث بدأت السفارات والهدايا تتردد بين البلدين، فضلا عن الرسائل التى كانت تتم فى كل مناسبة، ومع ذلك لم يمنع الأمر من حدوث التوتر بين البلدين[٤٠]

ونعتقد بأن هذا التوتر كان قليلا للغاية وان العلاقات الودية كانت هى القاعدة الأساسية التى سارت عليها العلاقات بين سلاطين المماليك وملوك بنى رسول فى معظم فترات حكم الدولة الرسولية، ومن هذه العلاقات الطيبة إرسال طبيب مصرى بناء على طلب الملك المظفر للاستعانة به فى القضاء على وباء ظهر بمدينة ظفار من بلاد عمان، وكذلك استعانة ملك الحبشة (بكونو) بالملك المظفر لدى السلطان بيبرس فى التأثير عليه لإرسال مطران من مصر إلى الحبشة المرتبطة بالكنسية المصرية[(١)].

وكان لإحياء الخلافة العباسية فى مصر أثره الواضح فى قوة وارتباط مصر باليمن أيضا منذ فترة حكم السلطان الظاهر بيبرس، بحيث يمكن القول أن بلاد اليمن تحولت إلى التبعية المباشرة لمصر، حيث كان السلطان الظاهر بيبرس بموجب تقليد الخليفة له صاحب الحق الشرعى فى حكم البلاد التى نص عليها التقليد ومن بينها اليمن رغم عدم رضاء السلطان المظفر الرسولى بذلك. وقد أنعم السلطان الظاهر بيبرس بألقاب عديدة على المظفر الرسولى.

---

[٣٩] راجع عن هذا الموضوع: فيصل الطميحى: النقود الرسولية المحفوظة فى مؤسسة النقد العربى السعودى، رسالة ماجستير قسم الآثار والمتاحف – كلية الآداب – جامعة الملك سعود – الرياض ، ١٩٩٨ ص ص١٤٣-١٤٩.

[٤٠] محمد عبد العال محمد: بنو رسول وبن طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما ٦٢٨-٩٢٣هـ –١٢٣١-١٥١٧م، القاهرة ١٩٨٠، ص ص ٣٦٦-٣٧٠.

(١) محمد عبد العال : بنو رسول ، ص ٣٧٥-٣٧٦.

وقد استمرت هذه العلاقات الودية مع السلطان سيف الدين قلاوون بعد وفاة بيبرس من خلال السفارات والهدايا التى بعث بها إلى السلطان قلاوون وهو الأمر الذى يتضح فى الأمان الذى طلبه المظفر من السلطان قلاوون[٤١] .

وكان يحكم العلاقات الودية الطيبة بين الجانبين فى المقام الأول قوة سلاطين المماليك فطالما هم فى مركز القوة، كانت هذه العلاقات تسير بشكل جيد، وحينما يدب الضعف فى بعض فترات حكم سلاطين المماليك فى مصر والشام كانت العلاقات تتحول إلى شكل أخر من قبل ملوك دولة بنى رسول، وكانت سفارات الهدايا التي تصل مصر من اليمن هى المؤشر الواضح على سير هذه العلاقات بين المودة والتوتر، فضلا عن دور النزاعات الداخلية فى اليمن والتى اعترضت بعض فترات حكم دولة بنى رسول، حيث كان يتطلب الأمر فيها فى بعض الأحيان الاستنجاد بسلاطين المماليك فى مصر وخاصة فى فترة حكم كل من الملك المؤيد والمجاهد وفترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون[٤٢].

ومهما يكن من الأمر فان طبيعة هذه العلاقات انعكست آثارها على الاتصالات الفنية بين البلدين، فكثيرا ما حملت الهدايا بين الطرفين تحفا فنية عديدة من أسلحة وأدوات معدنية مختلفة وأقمشة ثمينة وخاصة الملابس الحريرية وسروج الخيل والعقيق وغير ذلك مما كان له أكبر الأثر على وضوح التواصل الفنى بين البلدين، فضلا عن استدعاء الصناع بأساليبهم الفنية، ومدى تأثير ذلك على المنتجات الفنية المتبادلة بين البلدين وكذلك لا يمكن إغفال الدور الدينى والعلمى بين الدولتين وكذلك التواصل الدينى والعلمى الذى كان قائماً بين علماء الدين فى مصر واليمن.

وبإيجاز فانه يمكن القول أن العلاقات بين مصر واليمن كانت علاقات من نوع خاص سواء كان ذلك فى عهدى الدولة الفاطمية والصليحية أو الدولة المملوكية ودولة بنى رسول، وإذا كانت علاقة الدولة الفاطمية قوية بالدولة الصليحية بل إن الدولة الصليحية دانت بالتبعية للدولة الفاطمية وهو الأمر الذى ظهر واضحا على نقود هذه الدولة فى ذكر اسم الخليفة الفاطمى عليها فان علاقة دولة المماليك بدولة بنى رسول كان يحكمها اعتبارات كثيرة منها تمتع دولة بنى رسول بالاستقلال الكامل إلى حد بعيد عن دولة المماليك ـ فهى خاضعة ولو اسميا للخلافة العباسية فى بغداد ومصر ولا يذكر اسم سلطان مصر على نقودها عكس التبعية فى عصر الدولة الصليحية للدولة الفاطمية فى مصر.

---

[٤١] أمر قلاوون بكتابة هذا على قميصه ووقعه هو وابنه الملك الصالح ومما ورد فيه: (إنا داعون له ولأولاده مسالمون من سالمهم معا دون من عاداهم ناصرون من نصرهم، خاذلون من خذلهم، لا نرضى له ولأولاده إلا ما رضيناه لأنفسنا، وإنا لا نقبل فى حقه سعاية ساع ولا قول واش ولا تناله منا ضرة مدى الدهر وأعمارنا مادام ملازما لشروط مودتنا)
انظر محمد جمال الدين سرور دولة بنى قلاوون، الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ ص ١٣٠.

[٤٢] لمزيد من المعلومات انظر : محمد عبد العال بنو رسول ص ص ٣٩٨-٤١٩.

وإذا وضعنا فى الاعتبار فترة حكم الدولة الصليحية التى بلغت حوالى (٩٤سنة) وفترة حكم دولة بنى رسول التى بلغت حوالى (٢٣٠سنة) سنجد اختلافا كبيرا فيما يتعلق بالاتصالات الحضارية بين البلدين وهو الأمر الذى يمكن استنتاجه بإيجاز شديد فى النقاط التالية:

أولاً: تبعت الدولة الصليحية مباشرة الدولة الفاطمية وخاصة فى فترة حكم الخليفة المستنصر بالله بحكم طبيعة المذهب الإسماعيلى، وهو الأمر الذى ترتب عليه تأثير تام مباشر من مصر، تمثلت مظاهره فى مواد الفنون الزخرفية وان كان المعروف منها قليل وإنما يتأكد هذا الأمر من خلال النقود الصليحية التى حملت حملت اسم الخليفة الفاطمى والتى أشرنا إليها أو فى قطع المنسوجات، وخاصة القطع التى يحتفظ بها متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، وبعضها مصنوع فى طراز الخاصة بصنعاء[٤٣] . ولا يزال هذا الأمر وتوضيحه رهنا بما ستفسر عنه الحفائر فى اليمن سواء على مادة النسيج أو غيرها من مواد الفنون الزخرفية فى هذه الفترة والتى لا نستبعد وضوح الأثر الفنى الفاطمى عليها.

وفى مجال العمارة الإسلامية فان مسجد السيدة أروى بمدينة جبلة يوضح الاتصال المعمارى الواضح بين هذا الأثر وآثار الدولة الفاطمية المعمارية سواء فى مسجد السيدة أروى أو مشهدها كتشابه العقد الفاطمى والمجاز والضريح وقبة البهو والعناصر الزخرفية الجصية.
وكل هذه التأثيرات بطبيعة الحال وليدة العلاقات الطيبة بين البلدين على اختلاف المظاهر المعبرة عنها.

ثانيا: استمرت مظاهر التأثيرات الحضارية والفنية بين البلدين فى عصرى المماليك ودولة بنى رسول فى مصر واليمن وإن حكمتها مفاهيم وقواعد تختلف عن وضع الدولة الصليحية والفاطمية، فدولة بنى رسول تمتعت باستقلال يكاد يكون تاما عن دولة المماليك فى مصر رغم أن بنى رسول هم خلفاء بنى أيوب فى حكم اليمن وإنما بفضل قوة هذه الدولة وسيطرتها على مناطق عديدة فى اليمن وقوتها أيضا فى مجابهة دولة الأئمة الزيدية فى شمال اليمن استطاعت أن تقف كدولة عظيمة مستقلة لها نقودها الخاصة والتى لا تحمل التبعية حتى ولو اسمية للخليفة العباسى فى بغداد ومصر، ومع ذلك ماثل أمامها قوة سلاطين دولة المماليك فى مصر والشام وتعرف أن تأييد سلطان مصر لدعم حكمها فى اليمن أمر له أهميته فى استقرار سيادتها وتعرف أيضا أن تقليد الخلافة العباسية لسلطان مصر أمر ماثل أيضا. ومن هنا كانت التبعية إلى حد كبير فى كثير من المظاهر الحضارية التى سادها علاقات ودية فى معظم فترات حكم هذه الدولة وخاصة كلما كان سلطان مصر قوياً .

[٤٣] مصطفى شيحه : مدخل ص ١١٤-١١٥.

وتبدو لنا التأثيرات الفنية بين مصر واليمن قوية وكثيرة على العمارة ومواد الفنون الزخرفية فنشأة نظام المدرسة كان من مصر منذ حكم الدولة الأيوبية، وقد تطورت المدرسة عمارة وزخرفة وفنا بدرجة كبيرة، وبنى منها المدارس الكبرى والأخرى الصغرى وإن كان مفهوم المدرسة فى اليمن قد يختلف إلى حد ما عن مفهوم المدرسة فى مصر، وقد تميزت مدارس اليمن بطراز خاص فى العمارة الإسلامية ولا يمكن إدراك هذا الطراز وتبينه بجلاء إلا بزيارة هذه المدارس ومعرفة عناصرها وزخرفتها ذات الصبغة المحلية اليمنية الواضحة مراعاة لظروف البيئة والمواد الخام المستخدمة فى البناء وطبقة المعماريين وأهل الصناعات والحرف فى مدن وقرى اليمن.

وتتضح خاصية الفن فى زخرفة هذه المدارس فى أعمال الجص التى أدت دوراً مهما فى زخرفة المنشآت اليمنية وخاصة الدينية، إذ أنه من الملاحظ توافر الإبداع الفنى فى عمل الأفاريز الجصية الممتلئة بالزخارف النباتية والهندسية وأشرطة الكتابات النسخية وبخط الثلث وفى تفريغ بعض هذه الزخارف وتلوينها سواء فى الفتحات أو على بواطن القباب التى احتلت عنصرا معماريا ثابتا فى تغطية معظم أجزاء المدرسة اليمنية ومن المعروف أن العمارة اليمنية لم تقتصر على بناء المدارس فى عصر الدولة وإنما شملت المساجد وأبنية دينية ومدنية وحربية، وهذا أمر يحتاج لدراسة مستفيضة يقوم بها حاليا عدد من الباحثين فى مجال العمارة اليمنية.

وعلى مواد الفنون الزخرفية تظهر التأثيرات الفنية المملوكية بشكل واضح على التحف التى صنعت خصيصا لملوك دولة بنى رسول فى مصر أو أهديت لهم أو قام بها صناع استقدمتهم الدولة من مصر، وتظهر مثل هذه التأثيرات فى مجال الزخارف المختلفة والتى أشرنا إلى بعضها وخاصة مادة المعادن وغيرها.

وعموما فإنه يبقى نص ابن فضل الله العمرى باقيا لدراسات جديدة فى هذا المجال بقوله:" ولا يزال ملوك اليمن تستجلب من مصر والشام طوائف من أرباب الصناعات والبضائع ببضائعهم على اختلافها لقلة وجودهم باليمن[٤٤] .

وخلاصة القول أن التأثيرات الفنية وتبادلها بين الدولتين موضوع كبير ويحتاج لجهد أكبر وعلى الباحثين الجدد فى هذا المجال أن يقدموا لنا عملاً فى هذا الموضوع الذى مازال فى طوره الأول.

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق..

[٤٤] ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (القسم الخاص باليمن) حققه وقدم له ايمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٤ ص ٢٧